مذكرات حسني صالح الخفش ـ حول تاريخ الحركة العمالية العربية الفلسطينية (مركز الابحاث في م. ت. ف. ، بيروت ، ١٩٧٣)

حجرا جديدا اضافه المرحـوم حسني الخفش ، بكتابه ، الى البناء المتواضع مـن الكتب التي أوقفها أصحابها ومؤلفوها لمعالجة الحركة العمالية والنقابية الفلسطينية . وفي حدود علمي ، فان اول كتاب بالعربية عالج هذا الموضوع كان « التنظيم المهني » الذي أصدره الكاتب الماركسي الفلسطيني جبرا نقولا ، عام ١٩٣٥ . وبعده بنحو عشرين عاما اشترك كل من علي خريس وصلاح الصفدي في اصدار كتاب « الحركة النقابية العمالية في الاردن » عقدا فيه خلفية تاريخية عن نشأة وتطور الحركة العمالية والنقابية الفلسطينية ، باعتبار الحركة النقابية في الاردن امتدادا لها . أما كتاب محمد جوهر الذي نشره له ، عام ١٩٦٩ ، اتحاد العمال العرب بالقاهرة تحت عنـوان « الحركة العمالية في الاردن » ، فيكاد يكون صورة طبق الاصل لكتاب خريس والصفدي !

وقد يعجب القارىء لاني وضعت مذكرات المرحوم الخفش ضمن الكتب التي أرخت للطبقة العاملة الفلسطينية ، ولم أعتبره ضمن كتب المذكرات ، على ما بين المذكرات وكتب التاريخ من تباين . والواقع ان المرحوم الخفش خرج بكتابه هذا مما عودنا عليه الساسة العرب عند نشرهم لمذكراتهم ، اذ دأب كل منهم على تصوير نفسه وكأنه محور الكون ، وحامي حمى الوطن ، المنزه عن الخطأ ، المتسامح أبدا ، كما ويعمد الى تزيين أخطائه وتلطيخ سمعة الآخرين . وهو ما لم يفعله الخفش في مذكراته . بل جعل مـا عاصر من الحركة العمالية والنقابية الفلسطينية محورا لمذكراته . واذا كان تسجيله لتلك الفترة قد أتى موجزا في معظم أجزائه ، مفتقرا الى الوثائق والاسانيد ، فربما عاد ذلك الى ضياع الوثائق الخاصة بتلك الفترة وتسربها من بين أيدي الخفش مرتين ، الاولى عند وقوع النكبة عام ١٩٤٨ ، والثانية بعد خروج الخفش من الاردن عام ١٩٥٧ ، عقب تنفيذ الملك حسين والمخـابرات الامريكية للانقلاب المعـادي للحركة الوطنية الاردنية .

وقد حوت المذكرات على بعض الامور التي ظلت خافية على جيلنا ، مثل انتخاب الدكتور عمـر الخليل أمينا عامـا لجمعية العمـال العربيـة الفلسطينية ، خلفا لسامي طه الذي اغتيل في أواخر ١٩٤٧ .

وقد بين المؤلف كيف حـاربت الحركة العمالية الفلسطينية ـ خاصة في الاربعينـات ـ علـى جبهتين : ضد الاستعمار والصهيونية ، وفي المجال النقابي والطبقي ضد أصحاب رؤوس الاموال مهما اختلفت جنسياتهم . واذا كـان تداخل الكفـاح السياسي مع الكفاح النقابي أمرا طبيعيا ، فهو في المستعمرات أكثر الحاحا ، لوقوع الطبقـة العاملة تحت وطأة قهر مزدوج ، من الاستعمار ومن الرأسمالية المحلية .

وقد ذكر الخفش ان النقابة الاولى في فلسطـين كانت تلك التي انشأها عمال السكة الحديد في فلسطين عام ١٩٢٣ ، وفي ربيع ١٩٢٥ انشئـت « جمعية العمال العربية الفلسطينية » ، التي نجحت ـ بدورها ـ في انشاء بعض النقابات . ومنذ عام ١٩٢٧ بدأ مسلسل الاضرابات العمالية في فلسطين . الا ان النشاط النقابي انحصر ـ في البداية ـ في التثقف والدعوة الى وحدة الطبقة العاملة ، والمطالبة بتحسين ظروف العمل ، بمعنى انه انحصر في الاطار النقابي دون غيره . وكان هـذا مفهومـا نظرا لحداثة الطبقـة العـاملة وضعفها وضيق حجمها . وقد أشارت المذكرات الى الدور الذي لعبه ميشيل متري ـ وهو شيوعي فلسطيني ـ في تأسيس « جمعية العمال العرب » في منتصف الثلاثينات ، لمقاومة قانون تهويد العمل ، وهو القانون الذي وضعته الصهيونية ويقضي بطرد العمال العرب من المشاريع اليهودية ، ومحاربتهم في مجالات العمل الاخرى ، وخاصة الحكومية منها . وبين الخفش كيف أدت الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) الى اتساع البطالة بين العمال العرب الفلسطينيين ، والى اضعـاف الحركة النقابية الفلسطينية بالتالي خاصة بعد اعتقال بعض قادتها . والغريب ان الكاتب لم يشر الى المؤتمر العمالي الفلسطيني الاول الذي انعقد عام ١٩٣٠ ، على أهميته البالغة .

ويرى الكاتب ان المرحلة الثانية من الحركة العمالية والنقابية في فلسطين بدأت في عام ١٩٣٩ وانتهت بالنكبة عـام ١٩٤٨ . وأوضح كيف أدى نمـو